

الوافي في الوفيات

واجتاز البحري مرّةً بالموصل أو برأس عين فمرض بها مرضاً شديداً وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه فوصف له يوماً مزوّرةً ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه وكان بعض رؤساء البلد عنده قد جاء يعوده فقال الرئيس : ليس هذا الغلام يحسن طبخها وعندي طبّاخ من نعتّه من صفته فترك الغلام عملها اعتماداً على ذلك الرئيس وقعد البحري ينتظرها واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها فلما أبطأت عليه وفات وقت وصولها إليه ولم تجيء كتب البحري إلى ذلك الرئيس :

وجدتُ وعدك زوراً في مزوّرةٍ ... حلفت مجتهداً إحسان طاهيها .
فلا شفّى الله من يرجو الشفاء بها ... ولا علّت كفّ مُلَقٍّ كفّته فيها .
فاحبس رسولك عنّي أن تجيء بها ... فقد حبستُ رسولي عن تقاضيها .
حدّث أبو العنبر الصّيمي قال : كنتُ عند المتوكل والبحري يُنشدّه :
عن أيّ ثَغَرٍ تبتسم ... وبأيّ طَرفٍ تحتكم .
حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال ... متوكّل بن المعتصم .
والمجتدى ابن المجتدى ... والمنعم بن المنتقم .
أسلم لدين محمدٍ ... فإذا سلّمت فقد سلّم .
قال : وكان البحري من أبغض الناس إنشاداً يتشدّق ويتزاور في مشيته مرّةً جانباً
ومرّةً القهقري ويهزّ رأسه ومنكبّيه ويُشير بكُفّه ويقف عند كلّ بيتٍ ويقول : أحسنتُ
والله ثم يُقبل على المستعين ويقول : ما لكم لا تقولون لي أحسنت ؟ هذا والله ما لا يُحسن
أحدٌ أن يقول مثله فضجّر المتوكل وقال : أما تسمع يا صيمي ما يقول ؟ فقلت : بلى يا
سيدي فمُر بما أحببت فقال : بحياتي اهجّهُ على هذا الرّوي فقلت : تأمُر ابن حمدون
أن يكتب ما أقول : فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ وحضرني على البديهة أن قلتُ :

أدخلت رأسك في الحرم ... وعلمت أنك تنهزم .
يا بحريّ حذارٍ ويح ... ك من قُضا قِضةٍ ضُغم .
فلقد أسّلت بوادِي ... ك من الهجا سَيلَ العَرم .
والله حِلْفَةٌ صادقٍ ... وبقبرٍ أحمدٍ والحَرم .
وبحقّ جعفرٍ الإمام ... م ابن الإمام المعتصم .
لأصيّرنّك شُهرةً ... بين المَسِيل إلى العَلام .

فبأيّ عَرَضٍ تَعْتَصِم ... وبِهَتَكَه جَفَّ القَلَام ؟ .
حيّ الطلول بذى سَلَم ... حيث الأراكةُ والخِيَم .
يا ابنَ الثَّقِيلَةِ والثَّقِي ... لِـ على قلوب ذَوِي الذِّعَم .
وعلى الصغير مع الكبي ... ر مع المَوالي والحَشَم .
في أي سَلَح ترتطم ... وبأيّ كفّ تلتقِم .
إذ رَحَلُ أُخْتِكَ للعَجَم ... وفراشُ أَمَك للظُّلَم .
وبنات دارك حانةُ ... في بيته يُؤْتَى الحَكَم .
قال : فخرج مُغضِباً وأنا أصبح به : .
أدخلت رأسك في الحرم ... وعلمتَ أنك تنهَزم .
والمتوكل يضحك ويصفّق حتى غاب عنه وأمر لي بالصلة التي كانت أعِدّت له ولما قُتِل
المتوكل قال أبو العَنَبَس : .
يا وَحْشَةَ الدنيا على جعفرٍ ... على الهمام الملك الأزهر .
على قتيل من بني هاشمٍ ... بين سرير الملك والمَنبَر .
والـ رَبُّ البيت والمَشْعَر ... والـ أن لو قُتِل البحتري .
لثار بالشام له ثائرٌ ... في ألف نَغْلٍ من بني عَصَجَر .
يقدمُهم كلُّ أخِي ذِلَّةٍ ... على حِمَارٍ دابرٍ أعور .
فشاعت حتى وصلت إلى البحتري فضحك وقال : هذا الأحقق يرى أنني أُجيبه عن مثل هذا ولو
عاش امرؤ القيس وقال هذا لم أجبه . وقال البحتري قصيدةً يرثي بها العلاء بنَ صاعد من
جملتها : .
ولم أر كالدنيا حليلة وامق ... محبٍّ متى تحسُن لعينيهِ تَطْلُق .
تراها عياناً وهي صنعةٌ واحدٍ ... وتحسبُها صُنْعِي لطيفٍ وأخرَق